صوت الأدب الغربي

نداء الطبيعة

للاستاذ ابراهيم سكيك

ارتفع مستوى الحياة وكثرت نتيجة لذلك مطالبها وغدت الكماليات ضروريات لا غنى عنها ، فبات الحصول عليها عبئاً ثقيلا على كاهل رب الأسرة . وكان من أثر ذلك أن صار المرء يرى نفسه مرغماً على مضاعفة العمل وزيادة الجهود ، فيكدح ويجد حتى يتمكن من السير فى ركاب الحياة ومتابعة قافلة الزمن وتيار العصر .

وليس هذا الوضع بحديث أو مستهجن فى هذه الأيام ، إذ ظهرت بوادره عندما بدأ الانقلاب الصناعى فى أوربا فى القرن الثامن عشر ، ذلك الانقلاب الذى غير الأوضاع وأدخل استعمال الآلات بدل الأيدى فى المصانع والمواصلات فكان من جراء ذلك أن تقدمت الحضارة وتعددت مطالب الحياة .

وظهر على أثر ذلك شعراء عاطفيون تبصروا فيما حولهم فألفوا مواطنيهم منهمكين فى العمل مكبين على الدرس والتحصيل ، ورأوا فى الوقت ذاته مناظر الطبيعة الجميلة ومشاهد الكون البديع فآلمهم إهمال قومهم لتلك المناظر وانشغال مواطنيهم عن تلك المشاهد ، فأطلقوا العنان لألسنتهم وانبروا يحثون القوم على التمتع بالحياة والتلذذ بالطبيعة ، وكان إمامهم فى ذلك الشاعر الموهوب وليم وردز ورث (١٧٧٠ — ١٨٥٠) ومن قصائده فى ذلك تلك التى يقول فيها:

صاح دع كتبك وانهض قبل أن يثنى ظهرك ،
قم وأرح بصرك ومتع عينيك . لم كل هذا الكد والنصب ؟
لقد نشرت الشمس على هامات الجبال فيضاً من النور الوهاج
الذى يضفى عند المساء صبغة ذهبية على الحقول والروح
أما الكتب فهى نضال بليد لا نهاية له . تعال هنا وأصغ إلى عندليب الغابة وشنف أذنيك بموسيقاه العذبة التى تحمل فى ثناياها من الحكمة ما لا تحمله الكتب فى طياتها .
أصغ الآن وانصت إلى غناء الكروان فهو أيضا مرشد عظيم الشأن
تعال وتغلغل فى صميم الأمور ، وليكن لك من الطبيعة خير معلم
ففيها الكثير من الثروة الطبيعية معدة بحيث تستسيغها عقولنا وافئدتنا
تلك هى الكمية الوافرة التى نستنشقها بأنفاسنا ونحن فى خير وعافية
يكفيك إذاً ما حصلته من العلوم والفنون وأغلق هذه الأوراق القاحلة ،
وتعال معى حاملا قلبك الخفاق ليرقب ويتلقى مؤثرات الطبيعة

***

ثم انظر إلى قصيدة قصيرة للشاعر ديفس الانكليزى (١٧٧٠ — ١٩٤٠) وفيها يتساءل عن قيمة الحياة إذا خلت من جمال الطبيعة فيقول :

أى قيمة لهذه الحياة إذا أترعت بالعمل دون أن تبقى لنا وقتاً نقف فيه ونحملق فى جمال الكون . نقف تحت شجرة وارفة الظل ونحملق فيها كما تفعل الأغنام والأبقار . نتطلع حولنا ونحن نخترق الغابة حتى نرى السنجاب وهو يخفى حبات الجوز تحت العشب ؛ ونرى فى ضوء النهار مياه الغدران مرصعة بالنجوم كما تكون السماء فى الليل . وننظر إلى روعة الجمال الانسانى لنظفر منه بنظرة خاطفة ، ونرقب السيقان تتحرك فى رقص رشيق ، والفم وهو ينفرج عن ابتسامة عذبة بدأت بها العينان .

فان كانت حياتنا حافلة بالأعمال بحيث لا تمكننا من أن نقف وننظر ونتأمل فبئس الحياة .

***

ثم أنظر أيها القارىء إلى ما يقوله اللورد تنيسن (١٨٠٩-١٨٩٢) فى قصيدة غنائية يدعو فيها إلى نبذ متاعب الحياة فيقول :

هنا موسيقى عذبة ، ألحانها أرق من وقع الورد المتناثر عندما يسقطه النسيم على الأرض الخضراء ، وألطف من وقع قطرات الندى عندما تتساقط على مياه الغدير

هنا ترى البرك العميقة المنعشة تزحف على جنباتها شجيرات اللبلاب ، وترى الأزهار ذات الورق العريض تبكى فتنهمر دموعها فى الغدير ، بينما تتدلى أزهار الخشخاش على الحافة الصخرية كأنها

في سبات عميق .

لماذا أثقلنا كاهلنا بعبء ثقيل واستنفدنا طاقتنا بتحمل الكرب الشديد؟

بينما أرى كل الكائنات الأخرى نفضت عن نفسها عوامل الهم والأعياء وباتت مستريحة البال . نعم كل الكائنات في راحة أبدية فلماذا نكد وحدنا نحن ، نكد ونولد حولنا جواً من الكآبة والعويل الدائم ، فيظل الأسى يلقي بنا من سجن لآخر دون أن نطوي أجنحتنا ونكف عن تجوالنا في عالم الأحزان ، ودون أن ننقع جفوننا في بلسم النوم المقدس ، ودون أن نصغي إلى الترتيل الروحاني في أعماق نفوسنا وهو يقول : ليس هناك سرور إلا في الهدوء والاستقرار » فلماذا نكد وحدنا ونحن تاج في غرة الزمان؟

***

وهذا الشاعر الروماني ماريو (١٥٦٤ — ١٥٩٣) يخاطب حبيبة له على لسان راع يغري فتاته بالمجيء لتعيش بجواره ويتمتعا معاً بالطبيعة وما فيها من مباهج فيقول :

تعالي نعش معاً في حب وغرام ، فهنا نتمتع بما تعرضه لنا التلال والوديان والحقول والجبال من مباهج ومفاتن .

هنا نجلس على الصخور ونرقب من كثب الرعاة وهم يرعون قطعانهم إلى جانب الأنهار التي بنعومة خرير مائها مع تغريد الطيور

هنا أعمل لك فراشاً من الورد وآلافاً من باقات الزهر ذات الروائح العطرية وقلنسوة من الأزهار وعباءة مزدانة بأوراق الريحان وجلباباً من أجود أنواع الصوف الذي نأخذه من خيرة أغنامنا. وخفاً مخطط الألوان يقي قدميك الجميلتين برد الشتاء ومشابكه من الذهب الخالص وزناراً من القش مزداناً ببراعم الأزهار له مشبك من المرجان وأزرار من الكهرمان فتعالي إلى نعش معاً في حب وغرام .

***

ولنقتبس الآن أبياتاً من قصيدة رائعة كتبها الشاعر الذائع الصيت اللورد بايرون (١٧٨٨ — ١٨٢٤) بعنوان ما أحيلى وفيها يقول :

لشد ما تبتهج نفسك عندما تسمع غناء الملاح وصوت مجدافه وهو يخر في جدوله عباب البحر الأدرياتي ، ذلك الصوت الرقيق الذي تزداد عذوبته كلما ابتعد عن الأنظار . ولشد ما يثلج صدرك عندما تصغي إلى الريح وهي تعصف في الليل زاحفة من شجرة إلى أخرى ، وعندما تلقي ببصرك إلى قوس قزح وطرف منه في أفق المحيط وآخر في عنان السماء !

وليس ثمة أسر من تهويمك مبكراً على أغاريد الفنبر ، ومن نومك على أنغام خرير المياه واستيقاظك على أزيز النحل وصياح الصبية! وما أبهج فرارنا من مرح المدينة الصاخب الى هناء الريف الهادىء !

* * *

ثم إليك نبذة من قصيدة شاعر الشباب كيتس (١٧٩٥ـ١٨٢١) وهو يناجي بلبلا يغرد فيقول :

ليت لي جرعة من خمر معتقة يحمل نكهة الربيع ، ليت لي كأساً مترعة بل طافحة بخمر الجنوب الحاد ، اجرعها على نغمات الأناشيد البروفنسالية والرقصات الرشيقة فأغادر العالم وأتلاشى منه لأطير معك وسط الغابة

نعم أريد أن أطير لأنسى بين أوراق الشجر تعب الدنيا وازعاجها وامراضها، تلك الدنيا التي لا يرى المرء فيها الا أخاه يئن ويضجر، ويرى الرجال وهم شباب تذوي نضارتهم وتجف أجسادهم ويقضون نحبهم ، ولا يمكن للمرء أن يفكر فيها ويتمم النظر دون أن يعتريه الكدر والهم ثم اليأس والقنوط . فابتعد أيها الطير إذاً وسأطير معك من هذا العالم على أجنحة القصيد »

* * *

وأخيراً أقتطف أبياتاً رائعة للشاعر اندرو مارفل (١٦٢١ — ١٦٧٨) من قصيدة له بعنوان خواطر في بستان وفيها يقول :

لشد ما يبهر الانسان ويملؤه غروراً فوزه بعد جهود مضنية بأكليل من النار أو غصن من الجريد ! وإذ ذاك يرى جهوده تتوج من فرع شجرة واحدة كأنها بظلها القصير تؤنبه على جهوده التي ضاعت سدى ، بينما أرى الرجل الذي يلجأ الى بستان يجد جميع الأشجار والأزهار تتهادى وتتكاتف لتمطيه ظلا وارفا

أيها الهدوء الجميل ! لقد وجدتك هنا أخيراً كما وجدت معك أختك الطهارة، وطالما كنت مخطئاً حين بحثت عنكما بين جموع الناس العاملين لأنكما أبيتما أن تعرسا في غير هذا المكان بين الأشجار